سياسة حكومة الاتحاديين تجاه البلاد العربية المعاصرة

١٩٠٨ – ١٩١٤

تطور القضية العربية قبيل وبعيد الحرب العالمية الأولى

أولاً ـ نشأة الحركة العربية القومية الحديثة :

أ ـ النهضة الفكرية العربية :

شهد المشرق العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تطورات أقتصادية وأجتماعية كبيرة انعكست آثارها في بعث نهضة فكرية شملت مختلف جوانب الحياة في المجتمع العربي . وقد مثلت هذه النهضة الأطار الفكري الذي تنامى فيه الوعي القومي العربي ، وتدرج في نمائه في أتجاهات ثقافية الى أخرى سياسية عبّرت عن نفسها في التنظيمات والاحزاب السياسية التي شكلت فيما بعد الحركة العربية القومية . وقد لعبت هذه الحركة دوراً بارزاً في النضال القومي ورسمت عبر مسيرتها ، التي أخذت بالظهور في الثلث الأخير من القرن المنصرم ـ طموحات وأهداف الشعب العربي في التحرر والاستقلال[١] .

وقبل التعرض للحركة العربية لابد من بعض الأشارات السريعة بشأن النهضة الفكرية ، باعتبارها الأساس الذي انطلقت منه هذه الحركة . وكما تحدده الدراسات المعنية بالفكر العربي القومي فأن هذه النهضة عبرت عن عدة تيارات فكرية يمكن معالجتها بالصورة الآتية :

١-التيار الحضاري :

ويمثل هذا الاتجاه بدايات النشاط الفكري العربي الذي يهدف الى تحديد الهوية القومية للثقافة والفكر العربيين ، وأستند في ذلك الى إحياء الأرث الحضاري العربي الزاخر بالعطاء والإبداع ، وازاحة ما لحق به من دمار في العصور السابقة والكشف عن مكنوناته العلمية والأنسانية بهدف أيقاظ وعي العرب بتأريخهم وقوميتهم . وأبرز من مثّل هذا الإتجاه ، الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ـ ١٨٨١) وبطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) ، اللذان بذلا الجهود الكبيرة في احياء التراث العربي ، خصوصاً في علوم اللغة والأدب محدثين بذلك نهضة واسعة في هذين الحقلين اللذين يعدّان من أبرز مستلزمات النهوض القومي العربي[٢]

٢ ـ التيار الديني ـ الأصلاحي :

دعا هذا الأتجاه الى التوفيق بين الدين الاسلامي ومنجزات العلم الحديث كي تتمكن المجتمعات الأسلامية من أستيعاب متطلبات العصر الحديث . وقد أكد هذا الأتجاه على الرابطة العثمانية ، ولعل أبرز من مثل هذا الاتجاه ، جمال الدين الافغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧) ومحمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٢٥) .[٣]

٣ ـ التيار الديني ـ القومي :

وتمثل هذا الأتجاه في الدعوة الاصلاحية التي أكدت على تغيير الأوضاع الفاسدة التي كانت تسود الدولة العثمانية ، من خلال برنامج سياسي يعتمد على أساسين هما الرابطة الاسلامية متمثلة في الدين الاسلامي ، بعد تنقيته من الشوائب والبدع والتقليد الأعمى ، ثم الخلافة التي يجب أن تعود الى العرب من قريش بأعتبارهم أجدر الأمم في حفظ الاسلام من الفساد ، وذلك لمركز الجزيرة العربية ولمكانة اللغة العربية في التفكير الأسلامي . أضف الى ذلك أن الاسلام قد نجا نسبياً من المفاسد الحديثة وأن البدوي ظل بعيداً عن الانحطاط الخلقي والخنوع الملازمين للاستبداد . وخير من مثّل هذا الأتجاه ، عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨ ـ ١٩٠٢) الذي دعا الى خلافة عربية مركزها في الجزيرة العربية ، ووجه فكرة الاصلاح الديني بشكل يتماشى والفكرة العربية القومية . وهو بذلك يختلف عن الأفغاني لأيمانه بأن

للعرب مكانة خاصة في برنامجه الداعي الى تأسيس الدولة النموذج . وقد ضمن أفكاره ، كتابيه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) ، و (أم القرى) .(٤)

٤ ـ التيارات العلمانية والاصلاحية ـ الاجتماعية :

كرس هذا التيار أهتمامه بالجوانب العلمية وتطور المدنية الهائل في أوربا في هذا المجال ، ودعا الى تفسير الحياة وتطورها على أساس الحقيقة العلمية ، وخاطب العقل العربي للاستفادة من العلوم الأوربية لما فيها من قيمة عالية ، وبيّن أن بالامكان استخراج نظام اجتماعي جديد من خلال الاكتشافات العلمية ، وأن أساس هذا النظام انما هو التحسس بالمصلحة العامة ، أي الوطنية التي هي حب الوطن والمواطنين الذي يجب أن يعلو على جميع الروابط الاجتماعية الأخرى حتى الدينية منها .(٥) ودعا الى الفصل بين الدين والسياسة كما أولى عناية كبيرة بالمسألة الاجتماعية والتقدم الاجتماعي(٦) بكلمة أخرى كان هذا الاتجاه يعكس توجهاً علمانياً لاصلاح الأوضاع سياسياً واجتماعياً واقتصادياً . ويؤكد على الاستفادة من المدنية الأوربية في وضع النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الجديد . ولعل أبرز من مثّل هذا الاتجاه شبلي شميل (١٨٥٠ ـ ١٩١٧) وقاسم أمين (١٨٦٥ ـ ١٩٠٨) وأديب أسحق (١٨٥٦ ـ ١٨٨٤) وفرح أنطون (١٨٧٤ ـ ١٩٢٢) .(٧)

٥ ـ التيار القومي :

وكان الهدف الذي دعا اليه ممثلو هذا الأتجاه هو أستقلال العرب عن الدولة العثمانية وتكوين دولة عربية قومية تمتد من دجلة والفرات الى قناة السويس ومن البحر المتوسط الى البحر العربي . ويكون أسلوب الحكم فيها دستورياً ، والجميع من خلاله سواسية أمام القانون . وأكد ممثلو هذا الأتجاه على وجود أمة عربية واحدة وبأن المشاكل الدينية التي تنشأ بين ابناء أديان مختلفة أنما هي بالحقيقة مشاكل سياسية تثيرها قوى خارجية لمصلحتها الخاصة . وأبرز من مثل هذا الأتجاه ، نجيب عازوري (١٨٨١ ـ ١٩١٦) أحد المواطنين السوريين الذين أستقروا في فرنسا ، وقد ضمّن أفكاره هذه كتابه (يقظة الأمة العربية) المنشور باللغة الفرنسية في عام ١٩٠٥ ومن خلال نشاطه الاعلامي الذي تمثل في مجلة (الاستقلال العربي) التي أخذ يصدرها في باريس منذ نيسان ١٩٠٧ رغم أنها لم تعمر طويلاً أذ توقفت عن الصدور بعد إعلان الدستور العثماني في تموز ١٩٠٨ .(٨)

ب ـ نشوء الحركة العربية القومية :

في رحم هذه التيارات الفكرية ترعرع جنين الحركة العربية وأخذ بالظهور ممثلاً في الجمعيات والتنظيمات السياسية التي شرعت تطالب بحقوق العرب القومية ، وسنورد هنا أبرز هذه التنظيمات ونشاطاتها في ضوء السياق التاريخي لظهورها .

١ ـ جمعية بيروت السرية (١٨٧٥ ـ ١٨٧٦) :

يرجع أول جهد منظم للحركة العربية الى عام ١٨٧٥ حينما شكل مجموعة من الشباب العربي في بيروت تنظيماً سياسياً أطلق عليه (جمعية بيروت السرية) . وقد تزايدت أهمية هذه الجمعية وأتسع نشاطها حتى أصبح لها فروع في العديد من المدن السورية كدمشق وطرابلس ، وصيدا . واتخذت الجمعية طابع السرية في دعوتها للثورة على الأتراك ، وذلك من خلال المناشير التي كانت تلصق على جدران المدن وهي تحمل على ظلم الأتراك وتندد بالفساد .(٩)

ومما يلفت النظر في هذه المناشير تضمنّها مفاهيم سياسية جديدة لا عهد للأفكار السائدة بها . فللمرة الأولى في التاريخ العربي الحديث تبرز الدعوة الى « الوطن السوري ».تبدأ المناشير بالنداء يا أبناء سوريا « يا أهل الوطن » وتذكّر « بالنخوة العربية » و « الحمية السورية » وتدرج مطاليب عدّها المختصون أنها كانت أول بيان مدون عن برنامج العرب السياسي . أما ماتضمنته هذه المطاليب فهي :

١ ـ منح سوريا الأستقلال متحدة من جبل لبنان وبما يضمن المصالح الوطنية .
٢ ـ الأعتراف باللغة العربيةّ لغة رسمية في البلاد .
٣ ـ أطلاق حرية نشر الأفكار والمؤلفات والصحف .
٤ ـ أستخدام القوات المجندة من أهل البلاد في المهمات العسكرية الداخلية .

واضطرت الجمعية السرية الى أن توقف عملها بعد تصاعد الأستبداد الحميدي والقمع البوليسي وهاجر أبرز مؤسسيها فارس نمر وشاهين مكاريوس ويعقوب صروف الى القاهرة في عام ١٨٨٥ وأسسوا هناك جريدة سياسية يومية هي جريدة « المقطم » ومجلة فكرية هي « المقتطف » ليتابعوا من خلالها نشر أفكارهم التي بدأوها في بيروت .(١٠)

٢ ـ حركة وجهاء سوريا ١٨٧٧ ـ ١٨٨٠ :

حركة قام بها وجهاء بيروت وصيدا ودمشق عام ١٨٧٧ هدفها الرئيس البحث في مصير بلاد الشام والعمل على تجنيبه المصير السيء ومن أفجع صوره ، الاحتلال الأجنبي . ولم ترفض هذه الحركة بقاء الخليفة العثماني ، لكنها طالبت باستقلال بلاد الشام وتأجيل البت في طبيعة هذا الاستقلال لحين انجلاء الأوضاع عن الحرب الروسية العثمانية التي كانت دائرة حينذاك . اذ حددت الحركة هدفها بالاستقلال الناجز اذا ما تمخضت هذه الأوضاع عن نية أحدى الدول الأوربية فرض احتلالها على سورية ، والاستقلال الذاتي اذا ماثبت عدم وجود مثل هذه النية . فهي حركة لمواجهة الاحتلال الأجنبي بشكل خاص . وكان من أبرز زعمائها عبد القادر الجزائري وابراهيم أغا الجوهري وعلي الحر وأحمد عباس الأزهري والحاج حسين بيهم[١١] . كما يرد في هذه الفترة ذكر لنشاط الجمعية الخيرية الاسلامية التي نسب اليها توزيع المناشير الثورية ضد التغلغل الاستعماري في سورية[١٢] .

٣ ـ جمعيات ثقافية وأدبية (١٨٨١ ـ ١٩٠٨) :

أتسمت هذه المرحلة بعدم ظهور أي عمل سياسي بارز في المدن السورية ، ولعل ذلك يعود الى سياسة السلطان عبد الحميد الثاني . وبالرغم من ذلك فأن المراجع تحدثنا عن تأسيس ونشاط جمعيات ثقافية وأدبية أنضم الى حلقاتها ومنتدياتها العديد من المثقفين والأدباء والوجهاء . وعلى سبيل المثال (الجمعية العلمية السورية) التي تأسست عام ١٨٥٨ والتي لم تمارس نشاطها بشكل واضح الا في عام ١٨٦٨ بسبب الحرب الأهلية في لبنان ـ ثم تأسست جمعيات علمية وثقافية أخرى ذات أهداف انسانية وخيرية في كل من طرابلس وصيدا وبيروت مثل (جمعية زهرة الأحسان) و (شمس البر) و (زهرة الآداب) و (المقاصد الخيرية)[١٣] .

غير أن أبرز النشاطات الثقافية التي كانت تعبر عن مواقع المثقفين الفكرية والسياسية تلك التي ظهرت في دمشق في السنوات العشرين الأخيرة من القرن الماضي وأوائل القرن الحالي والتي شكل محورها ومحركها الشيخ طاهر الجزائري (١٨٥٢ ـ ١٩٢٠) هذه النشاطات التي عبرت فيما بعد عن نفسها وتطورت الى تنظيم

سياسي سري تمخض عنه في عام ١٩٠٣ ماأطلق عليه (حلقة دمشق الصغيرة) . وقد حددت هذه الحلقة هدفها بالسعي للقضاء على الأستبداد الحميدي وحكم السلطان المطلق وذلك بنشر الدستور المعلق . وكان أبرز من ساهم في تأسيس هذه الجمعية الشيخ جمال الدين القاسمي والشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ سليم البخاري ومحمد كرد علي وعبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي وعبد الرحمن الشهبندر (١٤) .

لقد تعمق المسار السياسي لهذه الحلقة تدريجياً للدور الفعال الذي أخذت تلعبه العناصر الجديدة أمثال محب الدين الخطيب وعارف الشهابي وعثمان مردم وصلاح الدين القاسمي... فقد أكدت هذه الحلقة على وضع برنامج سياسي يقضي بمطالبة الدولة العثمانية بأتخاذ نظام لامركزي يضمن للعرب حقوقهم في الحكم ويجعل لغتهم في الولايات العربية لغة رسمية في مدارس الحكومة ودواوينها ومحاكمها .. وقد لعب هذا النشاط دوراً في توسيع الأتصالات بين شباب دمشق وبيروت ، وكان من بين الذين أتصل بهم في بيروت عارف النكدي وعبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني والأمير عادل أرسلان (١٥) .

أستمرت هذه الحلقة في نشاطها وأنتقل هذا النشاط عام ١٩٠٥ ـ بانتقال بعض أعضائها ـ الى أسطنبول لاكمال دراستهم . ففي عام ١٩٠٦ أسس كل من محب الدين الخطيب وعارف الشهابي وآخرين (جمعية النهضة العربية) وأتفق على أن يكون مركزها الثابت في دمشق . وقد كان لهذه الجمعية أهميتها اذ ضمت العديد من الشباب العرب الموجودين في أسطانبول والذين ستبرز أسماؤهم بعد عام ١٩٠٨ كأعضاء في حزب اللامركزية العثماني أو جمعية العربية الفتاة أو جمعية العهد أو غير ذلك من النشاطات السياسية التي لعبت دوراً واضحاً في الحركة العربية في السنوات اللاحقة . (١٦)